أدب المقاومة في الخطاب النقدي الجزائري

عبد الله ركيبي أنموذجاً

ناجي صالحي (طالب دكتوراه)
أ. د: هيمة عبد الحميد
مخبر النقد ومصطلحاته
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

ملخص:

الخطاب النقدي لا يتوقف عند المهمة الجمالية والتاريخية فحسب، بل يتعداها إلى مهمة سياسية مقاومة، حيث يتوجه الفعل الثقافي إلى وجهة ترسم للمجتمع مساره باتجاه حقه في إعادة تحديد مكانته وتحقيق انعتاقه المعنوي والمادي، وهاهو عبد الله ركيبي يدعو من خلال تحليلاته لمضامين كثير من الأعمال الأدبية المبدع والناقد إلى الإسهام في بلورة القيم الوطنية الايجابية، مركزاً على رسالة الأدب الثورية، مؤكداً أن كل أدب يتمتع بصفة المقاومة، وفي هذا المقال سنبحث في الخطاب النقدي الجزائري، ومن خلال دراسات عبد الله ركيبي سنحاول الكشف عن فعل المقاومة الذي طالما سعى ركيبي إلى البحث عنه في الأدب الجزائري، فكيف تشكل هذا الفعل المقاوم؟ وكيف استطاع ركيبي أن يثبت صفة المقاومة في هذا الأدب؟.

الكلمات المفتاحية: المقاومة، الخطاب النقدي، الأدب الجزائري، عبد الله ركيبي.

Abstract:

The critical discourse does not stop at Just the aesthetic and historic task but weir beyond that to a political resistance, where the cultural act beading to the point of drawing the community path toward the right to define its position and achieve emancipation of the moral and physical, and here is Abdullah Rkibi calls through his analysis of the contents of many literary works creator and critic to contribute in the development of positive national values, focusing on the message of revolutionary literature and stressing that all literature has observer resistance.

Résumé:

Le discourse critique ne se borne pas a la fonction esthétique et historique car il peut la dépasser du fait que l’acte culturel peut s’orienter vers une direction qui permet de tracer l’itinéraire de la société vers son droit, et se, afin de lui permettre de revoir son rang en vue d’occuper une meilleure place lui permettant de s’épanouir an plan abstrait et matériel.oui ; nous permet de citer et d’évoquer Abdallah Rkibi qui incité à travers ses analyses inhérentes à beaucoup de travaux littéraires c’est-à-dire ceux d’un innovateur et d’un critique dans le but de participer pour mettre en vue les valeurs nationales positives, en se concentrant sur la lettre littéraire qui revêt un cachet révolutionner. Comme il insiste sur ce point ; celui que tonte littérature joint d’une caractéristique de résistance voire que cette denier revêt un cachet communautaire ou nationaliste.

تمهيد:

لاشك في أن المقاومة حركة طبيعية تلقائية، أساسها رفض الذات لأي منبه خارجي غير مقبول وغير مناسب لمصالحها، حيث يسعى أي عضو حيوي أو ذات فاعلة إلى صد هذا الدخيل أو القضاء عليه وعلى مصدره ونتائجه، ولمّا كان الإنسان كائناً مثقفاً، كان دائم السعي إلى صد كل جهود السيطرة عليه مادياً ومعنوياً، فهو المقاوم المثقف الذي طالما كان يحاول جاهداً تطوير آليات ثقافة المقاومة بتعدد فروعها وتنوع أشكالها، وكان الأدب واحداً من هذه الأشكال الرامية إلى تحرير العقول وتنويرها فكرياً وثقافياً، ورغم أن المقاومة سابقة على النص إلا أن الأدب ظل مُرافقاً لها ومتابعاً لخطواتها، داعماً ومرشداً ومسجلاً لها، ومقاوماً لأشكال السيطرة والهيمنة المتجسدة في صور أدبية مضادة، وفي هذا نسعى بالبحث عن تجليات المقاومة في أعمال عبد الله ركيبي من خلال أهم الأعمال التي حاول استنطاقها والبحث فيها عن الفعل المقاوم عند مجموعة من الأدباء الجزائريين.

1- **الأدب والمقاومة:** ولأن الجزائر من أكثر البقاع في هذه المعمورة تعرضاً لأطماع الغزاة، ظل شعبها أكثر الشعوب مكابدة ومقاومة عبر كل العصور، فكم كانت معاناته شديدة، وكم كانت مقاوماته طويلة وثوراته مريرة، فكان مَثَل الشعوب في المقاومة والصمود بكل الوسائل، وكان للأدب الدور الهام في ارتباطه بكل المحرضات المادية والمعنوية « فيتحول في المراحل المصيرية، إلى سلاح غلاب لا يقف في وجهه باب السجن، ورصاص المستعمر، وتتطور مضامينه لتماشي آمال الجماعة وهمومها، فيعزف عن ترف اللامبالاة ((وبرجعاجيّته)) وفنونه التقليدية، لتهدم كل فكرة منه، أو كل كلمة من كلماته، حجراً من صرح المعتدي على استقلال الوطن»(1)، ليغدو الأدب أهم مظاهر الوعي وأهم الوسائل المعنوية المتاحة.

ولما كان الأدب من أهم مظاهر الوعي والتنمية الثقافية، و وسيلة فعّالة في البحث عن الهوية وتحقيق التحرر والتقدم، صار لزامًا عليه مواجهة كل أصناف الاحتلال والاستعباد بالثورة عليه ومواجهته بكل الوسائل، ومن خلال ما عاشته الجزائر منذ الأزل من لدن كل من مر بها باتت مدرسة تعلم الكفاح والمقاومة لكل الشعوب.

وهذا ما جعل العديد من مصلحي وسياسيّي الجزائر ومثقفيها يثورون على هذه السلطة الظالمة بكل ما أوتوا من وسائل وإمكانات مادية ومعنوية، ومن الذين ثاروا وانتفضوا نجد مجموعة من الكتاب والشعراء والنقاد الجزائريين، من أمثال الأمير عبد القادر بن محي الدين، والأمير خالد، ومشايخ جمعية العلماء وأحمد رضا حوحو ورمضان حمود وعبد الله ركيبي، هذا الأديب والناقد الجزائري الذي استطاع أن يصور الواقع الجزائري المعيش في كل كتاباته التي تصور الحياة تحت الأسر لمجتمع خاضع لاستبداد السلطات الاستدمارية.

عبد الله ركيبي، القاص والناقد الجزائري الذي سخر كل حياته لخدمة الأدب الجزائري خاصة والعربي عامة، من خلال ما قدمه من أعمال إبداعية ونقدية، دارت في مجملها حول أهم القضايا الإنسانية المصيرية، وفي هذا المقال سنتناول بالدراسة مجموعة من الأعمال النقدية التي قدمها في القصة القصيرة والشعر، ومن أبرز القضايا التي سلط عليها الضوء في دراساته النقدية، قضية العلاقة بين الأدب والمقاومة والثورة بكل أشكالها، فكيف كانت هذه العلاقة في نظره؟، وما هو دور الأديب في تشكيل هذه العلاقة؟ .

إذا كان الأدب تمظهراً ثقافياً وشكلاً من الأشكال التعبيرية، فإنه يتفاعل مع الظاهرة النقدية، تأثيراً وتأثراً إن سلباً أو إيجاباً لان الإبداع الحقيقي هو الذي يخلق العملية النقدية الحقيقية الفعالة، لتغدو رسالة تحمل كل معاني الإنسانية، داعية إلى أنبل القيم واسماها، رافعةً راية التحرير و الانعتاق والمقاومة بكل أشكالها.

ولأن « الأدب هو التعبير عن الكرامة الإنسانية والقيم البشرية، فلهذا نرى أنه قد استطاع أن يصور الميزات الإنسانية في كل مكان وفي كل زمان، تصويراً فنياً رائعاً ذا أثر عميق »(2) تكشفه العملية النقدية وتغذيه، وكما يرى أصحاب نظرية آداب ما بعد الاستعمار في الدراسات الثقافية، فإن الخطاب النقدي لا يتوقف عند المهمة الجمالية

والتاريخية فحسب بل يتعداها إلى مهمة سياسية مقاومة، حيث وجهت هذه الدراسات الفعل الثقافي إلى وجهة ترسم للمجتمع مساره باتجاه حقه في إعادة تحديد مكانته وتحقيق انعتاقه المعنوي والمادي، عبر استراتيجيات وآليات تنمي وتطور الوعي الفردي والجماعي.

ومن هنا وكما يرى ادوارد سعيد فانه جدير بالذكر أنّ الناقد في عملية كشفه عن أساليب الهيمنة، لابد عليه أن يمتلك حساً ودربة خاصتين تمكنانه من الابتعاد عن الانقياد لأية سلطة تمنعه من تحقيق رغبته في تغيير العالم، ومقاومة كل ما يشوه وجه التاريخ من أفكار ومظالم وسياسات لا إنسانية.

وهاهو واحد من أوائل النقاد في الجزائر، الذين كان لهم الفضل في وضع اللبنات الأولى لكثير من الإنجازات الثقافية والفكرية في الجزائر، واحد من أعلام الفكر والثقافة الجزائرية، والذي عاش وعانى كما كان يعاني هذا الوطن في كل محنه على تعددها، عاش محنة الوطن أيام الاستعمار الاستيطاني الشرس، الذي كان يرمي إلى مسخ فكر الأمة ولغتها وقطع أوصال امتدادها العربي الإسلامي، وعاش كل تحولات الوطن وتقلباته وهو يرمم الذات وينهض من جديد بعد طول ليل استعماري ظالم، وعاش أيام المحنة الوطنية في تسعينات القرن الماضي.

فالأديب والناقد الجزائري عبد الله ركيبي، « أحد الشخصيات الثقافية التي سجلت حضوراً قوياً بمختلف إسهاماتها في تأسيس الحركة النقدية الجزائرية وتفعيلها من خلال جمعها بين كتابة القصة القصيرة والمسرحية والنقد، وهي بهذا قد شكلت جزءاً مهما من ذاكرتنا النقدية والإبداعية »[3] ، عبد الله ركيبي الذي دعا من خلال تحليلاته لمضامين كثير من الأعمال الأدبية، المبدع إلى الإسهام في بلورة القيم الوطنية الايجابية، مركزاً على وظيفة المبدع العظيمة والفعالة التي تدفعه دوما إلى الإسهام في عملية التغيير التي يسعى إليها الإنسان.

وقد تنوعت دراساته النقدية بين الشعر والقصة القصيرة، مبرزاً علاقة الأدب والفن بتطلعات الإنسان ورغبته في تحقيق حريته، هذه الحرية التي تصنع أدباً إنسانياً مقاوماً، «لأن الأدب والفن يتغذيان بالحرية أولاً وأخيراً، الحرية التي يلزم بها الأديب والفنان تجاه عصره وقضايا وطنه والإنسان عامة، لا الحرية التي يلزم بها الفنان إزاء الدولة الحاكمة »[4]. فالحرية التي يتحدث عنها ركيبي هي التي ألهمت كتاب الشعر والقصة الجزائرية القصيرة وغذت أعمالهم، كما كانت إحدى أسمى غايات الأدب.

وبالعودة إلى دراسات ركيبي النقدية، مثل كتابه " القصة الجزائرية القصيرة " وكتاب "تطور النثر الجزائري الحديث"، وعديد المقالات والحوارات النقدية نجده يرى بأن « الحرية هي التي تفجر عواطف الفنان أو الأديب نغماً شجياً يتغنى بآمال الإنسان ويعبر عن آلامه وأحلامه..عن همومه.. عن حاضره ومصيره.. فإذا ما تحجرت هذه العواطف وجفت تحت ضربات السوط..سوط الإرهاب، فلن يغني هذا الإنسان ولن ينشد، وإذا غنى، فغناؤه لن يكون صادقاً مخلصاً شجياً..فحرية الإنسان تعني حرية الفنان والعكس صحيح..وإذا قيدت هذه الحرية فكيف نطالب الإنسان، هذا الفنان بأن يعمل على تحرير الآخرين وهو مقيدة يده مجروحة كبرياؤه»[5]، وبهذه الرؤية فان عبد الله ركيبي « يعتبر الحرية شرطاً أساسياً في نجاح العمل الفني، لأن مصادرة حرية المثقف أو الفنان هي قتل وتزييف لأفكاره وعواطفه»[6]، لأن حريته هي حرية أفكاره وحرية كلمته، فلا يمكن أن ينادي بحرية الآخرين وأفكاره لا تتصور ولا تعي معنى الحرية ولا تطمح إليها.

وبهذا فهو يحدد إحدى وظائف الأدب الذي لا يجب أن ينفصل فيه المضمون عن الواقع، وفي هذا دعوة صريحة للأدباء حتى لا يحيدوا عن رسالتهم تجاه أمتهم، ليلح على رسالة الأدب الثورية، وإلى التأكيد على أن كل أدب يتمتع بصفة المقاومة، سواء كانت ذات صبغة قومية أو وطنية.

أ- الشعر الجزائري المقاوم: أما دراساته للشعر الجزائري، فقد تناول فيها أهم المراحل التي مرتّ بها الحركة الشعرية في الجزائر، بداية بما سماه بشعر الانطواء الذي ظهر كرد فعل على الواقع الذي سيطرت عليه الثقافة الفرنسية والحصار الذي ضرب على الثقافة العربية الإسلامية، فاتجه شعراء هذه المرحلة إلى العزلة والانطواء « ولجأ الشعراء إلى الصوامع، ينشدون السلو، والهدوء، ويرقبون رحمة الله، ويظنون..بذلك..أنهم قد أدوا ما عليهم من واجبات، لأنهم فضلوا حياة الآخرة على هذه الحياة الفانية »[7]، ولم يكن هذا الانطواء في المسجد والصومعة فحسب، بل تعداه إلى الانطواء على الذات المحرومة والنفس المكبوتة، في صورة من صور مقاومة الخضوع والاندماج مع هذا المحتل.

وهاهو ناقدنا يتتبع هذه الحركة الشعرية الموازية للتطور الفكري الذي عرفته الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، فكل ما عرفته هذه المرحلة من تطورات سياسية وفكرية جعلت من المثقف الجزائري يفكر في التغيير والدعوة إلى النهوض من جديد « ووجد الشعب الجزائري أنه لابد من عمل جدي آخر غير الأمل في عدل فرنسا، فأخذ يتلفت هنا وهناك يستنجد ويفكر، وأخذ يبحث عن نفسه وسط هذه الدوامة التي يعيش فيها، من جهل وفقر، وتأخر...في شتى الميادين» [8]، وهو هنا يؤكد على أن هذه الحركات كانت بداية النضج الفكري الذي ولّد طبقة مثقفة تدعو إلى الإصلاح تارة، والى المساواة والنهضة تارة أخرى « وجاء الشعر يعبر عن كل هذا، جاء ليكون صدى معبراً عن كل هذا دون أن يرتبط باتجاه معين، دون أن يكون بوقاً لهذا أو ذاك، إنما ليكون مسجلاً أميناً لأماني الشعب وآلامه، وليقول كلمته، وكلمة الشعب، لا ينافق هذا ولا يجامل الأخر»[9]، ولا ينتمي إلى أي تيار سياسي من شأنه أن يميل به إلى اتجاه معين.

وبعد أن كانت الأوضاع تدور في حلقة مفرغة، والأفكار مشوشة والأصوات تعلو وتنخفض وكانت الدعوات متناقضة، رأى ناقدنا بان أحداث الثامن من مايو جاءت لتكشف الحقائق وتعريها، فما كان للشعراء إلا أن « وجدوا أنفسهم يعيشون هذا الحدث الضخم، ورأوا... بأعينهم...كيف تهان كرامة شعبهم، وتداس حقوقهم(...) فأخذوا معاولهم يهدمون هيكل الجهل المتداعي»[10]، فتحولت مأساتهم إلى محفز ومحرض على التجند صفاً واحداً في خندق المقاومة.

فكانت هذه المرحلة بداية لظهور فكر المقاومة، مقاومة الجهل والذل، مقاومة الذات المتخاذلة، وفي الأخير يخلص ناقدنا إلى أنّ كل هذه الإرهاصات قد أدّت إلى نتيجة واحدة كانت مرجوة، وهي الثورة والمقاومة الفعلية التي تنبّأ الشعراء بها قبل مدة طويلة، بل وقد تنبّأ بعضهم بمكانها فتوقعوها ثورة على قمم الجبال، وهذا ما أشار إليه ركيبي حين تناول قصيدة للشاعر"أحمد معاش الباتني"، الذي نظم قصيدة قارن فيها بين جبال الألب التي أرسلت الاستعمار وجبال الأطلس التي ستطرده، كما أشار إلى قصيدة من جبالنا كذلك،« وربما يكون الشعر قد رأى في الجبال رمزا للقوة والمنعة، ورأى فيها الحصن المتين الذي يمكن أن يلوذ به الثوار في يوم ما، وقد يكون وثبة خيال جريء، ولكنها..على أية حال.. كانت صادقة ولقد أيّدها الواقع.. فانطلقت الثورة من الجبال وحققت أحلام الشعراء..بعد تكهناتهم وإرهاصاتهم بزمن طويل» [11]، فكانت الملهم للثوار والموجه لهم.

ويبقى ركيبي يؤكد على أن الشعر رافق الثورة التحريرية وساندها ونقل أخبارها وبطولاتها، كما رافق مقاومة الأمير عبد القادر وكل المقاومات التي تلتها.

ومن النماذج التي اختارها في دراساته للشعر الجديد، نجده قد اختار مجموعة من الشعراء على سبيل التمثيل، فاختار الشاعر عبد العالي رزاقي، حيث قدمه في صورة ثورية مقاومة للاستعمار أولا ولكل أشكال الطغيان الأخرى عند الحكام والملوك ورجال السياسة، والشاعر أحمد حمدي المناضل الثائر، وبهذا فإن ركيبي قد خص مجموعة من الشعراء يشتركون في أعظم مهمة منوطة بالشاعر وهي مهمة النضال والمقاومة.

وفي خلاصة بحثه في موضوع الشعر الحر أو الشعر الجديد كما سماه، نجده يقدم مجموعة من النتائج، كان أهمها ربطه ظهور هذا الشعر الجديد بفكر النضال وروح المقاومة التي عرفها الشعراء الشباب في فترة الثورة

الجزائرية فيقول: « يبدو من النماذج التي اطلعت عليها والتي سقناها في هذا البحث أن الشعراء في هذا اللون من الشعر أكدوا على الجانب السياسي والنضالي وعنوا به عناية خاصة أكثر مما عنوا بالجانب الاجتماعي»[12]، وفي هذا نلحظ بأن ركيبي في حديثه عن الجانب السياسي في الشعر الجزائري يقدم انتقاده للشعراء الذين أهملوا الجانب الاجتماعي كثيراً، وهذا في قوله: « بيد أننا نلاحظ أيضا أنهم إلى الآن لم يعنوا بالجوانب الهامة لحياة الشعب، ولم يعتنوا بأشياء من صميم الشعب، فلا يزال شعراؤنا تجذبهم الناحية السياسية أكثر مما تجذبهم النواحي الأخرى، فليس هناك حديث عن الفلاح الجزائري الذي غذى الثورة بدمه، ولا حديث عن الفدائي الذي ضرب الرقم القياسي في البطولة النادرة»[13]، ولكن يجب الإشارة هنا إلى أن هذا الكلام الذي وجهه ركيبي للشعراء كان في مرحلة معينة اتسمت فعلاً بالحماس إلى الانخراط في الحركة السياسية والحديث عنها، وقد تلتها مرحلة أخرى انصرف فيها اغلب الشعراء إلى النضال والمقاومة، ولكن هذا لا يعني أن المرحلة السابقة لم تشهد أعمالا تتناول شعرية الحياة الاجتماعية إطلاقاً، وهذا ما لم يشر إليه ركيبي لأنه كان أكثر اهتماما بالقضايا المصيرية.

ومن أهم القضايا التي تناولها الشعر الجزائري كانت قضية فلسطين، التي آلمت وألهمت عديد الشعراء في المشرق والمغرب، وكانت قضيتهم الأولى وشغلهم الشاغل في اغلب قصائدهم، فكان لها في الشعر الجزائري النصيب المهم رغم ما كانت تعانيه الجزائر في فترة الاستعمار وما بعده، وها هو ركيبي يخص جانبا مهما من في دراساته التي تبحث في قضايا الشعر الجزائري للقضايا العربية ومنها القضية الفلسطينية، وكثيرا ما نجده يركز دراساته على البحث والإشادة بمن ناضل وقاوم مع الشعب الفلسطيني من أبناء الأمة العربية بمن فيهم أدباء الجزائر وشعرائها، « وقد كان ظهور المقاومة الفلسطينية، عاملا قويا ساعد على وضوح الرؤية بالنسبة للأديب – شاعراً أو قصاصاً- وساعد المثقف العربي عامة على أن ينظر إلى المستقبل نظرة متفائلة »[14]، تبعث الأمل في النفوس بغدٍ جديد بعد أن التفت كل الأطياف حول هذه القضية المصيرية.

وفي هذا المجال نجد ركيبي يقدم عديد النماذج الشعرية التي يرى بأنها اصدق مثال على الشعر المقاوم، وقد اعتمد اختيار نماذج من الشعراء الأكثر تأثيراً في الساحة الأدبية، لكنه لم يغفل الشعراء الذين يعتقد أنهم أبدعوا في مقاومتهم لكل النوازل والمحن، ومن بين هؤلاء الشعراء الذين لم ينالوا حقهم في الدراسة والإشادة بفكرهم الثوري المقاوم نجده يتناول الشاعر الجزائري مبارك جلواح، في كتابه (الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار)، هذا الشاعر المغمور« بالرغم من أصالته وتفرده وامتيازه، وبالرغم من أنه كرس إنتاجه كله تقريبا لشجونه وشجون وطنه... فقد تغنى بحب المرأة، وبحبه لبلاده، واستحق أن يكون رائداً للرومانسية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث، وتمرد على المدرسة الإصلاحية الكلاسيكية وعلى نظرتها للشعر ووظيفته »[15]، الشاعر جلواح الذي رأى ناقدنا بأنه أكثر شعراء عصره فهما للشعر ودوره في حياتنا، وبهذا فإن ركيبي قد ركز في نقده للشعر الجزائري على الشعر الرومانسي، بعد أن تناول مراحل تطور الشعر في الجزائر بداية من الشعر الديني الذي كان موضوع أطروحته في الدكتوراه بعنوان(الشعر الديني الجزائري الحديث)، وهذا ما جاء في حديثه عن الشاعر جلواح، حيث ركز في هذا الأنموذج على العلاقة المهمة بين الشاعر ووطنه، وعلى انتماء الشعر الجزائري قبل الثورة إلى التيار الكلاسيكي المرتبط بالحركة الإصلاحية، وعن سبب انتقاله إلى الرومانسية، ففي رأيه لم يكن هذا الانتقال ثورة على المذهب الكلاسيكي، بل كان نتيجة للأوضاع السيئة آنذاك والتي كان يتوجب الثورة عليها.

ب- القصة الجزائرية والمقاوِمة : أما حين تناول ناقدنا القصة الجزائرية، من بداياتها إلى محطات تطورها، تطرق فيها إلى الأشكال القصصية التي عرفها النثر الجزائري، كالمقال القصصي والصورة القصصية والقصة القصيرة، مركزاً على أهم التيارات التي عرفتها القصة الجزائرية، بداية من التيار الرومانسي الذي ظهر في هذه الأعمال

بالموازاة مع التيار الواقعي، حيث قسم التيار الرومانسي إلى اتجاهين، اتجاه يمثل الهدوء والمثالية التي تحلم بالحب العذري والروحاني، واتجاه حاد مادي يحلم بالحب المادي الصرف.

وهو هنا يعيب على التيار الرومانسي ابتعاده عن الواقع والعمق، فحياة الإنسان أكثر تعقيداً وأوسع افقاً من الحياة التي تبحث عن الحب المثالي أو الحب المادي العنيف، وهذا ما يتعارض مع توجه الفنان الأصيل الذي « يبحث دائما عن الإنسان، ويعبر عن قضايا الإنسان الخاصة والعامة، عن قلقه، عن طموحه، عن أشواقه، عن حياته المادية والروحية معاً »[16]، لذا فإنه يبعد هذه النظرة الرومانسية سواء كانت مثالية أو مادية عنيفة، عن الواقع والعقل، لأنها رؤية ذاتية صرفة في أحلامها وتصوراتها وأحزانها.

ومن جهة أخرى يرى ناقدنا بان التيار الواقعي الذي تأثر به الأدباء العرب وظهر في القصة الجزائرية القصيرة أثناء الثورة التحريرية، قد ارتبط بالواقع المأساوي آنذاك، هذا التيار الذي ينزع إلى المقاومة والتحرر، « فالواقعية إذن هي اتجاه نحو الواقع، والقصة الفنية هي التي تنقل هذا الواقع في صدق فتعكسه في أسلوب مقنع مبرر، وهي بهذا لا تنقل نقلا مباشراً ولا تسجله تسجيلاً آلياً، وإنما تصوره تصويراً يوحي بإمكان وقوعه»[17]،. وبتعبير آخر فان ركيبي يرى بان الواقعية هي التي دعمت صراع الأمة ضد الاستعمار والاستغلال، ليغدو هذا التيار من ابرز مظاهر القصة الجزائرية القصيرة إبان الثورة التحريرية وقد «ظهر تأثير الثورة في مضمون القصة القصيرة، فبدأت تتخلص من الحديث عن التقاليد الاجتماعية ، وتتخلص أيضا من الصبغة الإصلاحية التي سيطرة عليها طويلا، وأخذت تتحدث عن واقع الفرد والمجتمع معاً»[18] ، تماشياً مع تطورات المجتمع الجزائري وتحولات تلك المرحلة في الجزائر والعالم أجمع.

كما حاول التأكيد على أن القصة الجزائرية القصيرة مرتبطة بالمضامين الثورية، ليتحول هذا الفن إلى قوة جديدة وفعالة في إعادة صياغة الحياة، وتنمية القيم الوطنية والاجتماعية، وفي هذا الموضع يؤكد أن للقاص وظيفة عظيمة وفعالة تدفعه دوماً للإسهام في عملية التغيير التي يسعى إليها الإنسان، وأهم ما كان يؤكده ركيبي خصوصية القصة الجزائرية بصفة المقاومة والكفاح، فـــ« إن القصة الجزائرية بصفة أخص، هي المعبرة عن مدى الالتزام الشخصي لرجال ملتزمين بالتضامن في الكفاح المشترك داخل مجتمع مستعمَر، وهي أيضا قصة الإحساس العاطفي لهؤلاء الرجال عندما يتحدثون عن تاريخ بلادهم، ومن هنا كانت القصة الجزائرية، في هذه الفترة التاريخية، تصور شكلاً خاصاً نجده لدى قصص المقاومة بشكل عام في العالم»[19]، بتحول مسارها في فترة وجيزة إلى العالمية من خلال هذه الخاصية المقاومة في أسلوبها ومضامينها، بعد أن اتصفت بالكثير من الرومانسية وبشيء من السذاجة والسطحية في بدايتها.

أما ما كُتب باللغة الفرنسية من الأدب الجزائري وخاصة الرواية، فإن عبد الله ركيبي ينحاز إلى الرأي الذي يقول بجزائرية هذه الأعمال باعتبار مضامينها والقضايا التي تناولتها، وباعتبار أنها كانت وسيلة مقاومة بكشف المستعمر وتعريته أمام شعبه وأمام العلم أجمع، فهي تتحدث عن الواقع الجزائري وهمومه، فابن الفقير جزائري وهمومه جزائرية، ونجمة ابنة الجزائري وقبيلتها جزائرية، كما كانت زهرة زوجة المنجمي جزائرية.

لهذا يؤكد ركيبي على أن هذا الأدب من الأدب الجزائري على الرغم من لغته الأجنبية، وهذه الأعمال في معظمها كانت في الرواية والتي كانت على حسب رأيه أكثر نضجاً وطغياناً، خاصة ما كتبه محمد ديب وكاتب ياسين وأمثالهم، حيث « عبَّرت بصدق وانفعال عن واقع الثورة ونضال الشعب وقدمت لنا نماذج إنسانية في مواقف مختلفة وعكست نظرتهم إلى الحياة من خلال الثورة، وصورت ظلم الاستعمار وسيطرته»[20]، ورغم إشادته بهذه الأعمال التي صورت كفاح هذا الشعب، إلا أنه يرى بأن المقاومة الفعلية قد أبرزتها تلك الأعمال الأدبية التي تمثل القومية العربية بلغتها العربية الفصحى.

ورغم أنه يعترف بما كتب باللغة الفرنسية في مرحلة ما من تاريخ الأدب الجزائري باعتباره أدباً وطنياً لعب الدور المهم والفعّال في نقل صور الواقع المرير، لكنه يرى بأنه لم يكن وحده في الساحة الأدبية الجزائرية، وفي تلك الفترة كان « الأدب العربي في الجزائر يلعب دوره الهام في المقاومة حين التحم نضال القلم بنضال المدفع»[21]، إذا فإن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية كأعمال (محمد ديب) و(كاتب ياسين) و(مولود فرعون) « لم يكن وحده في الميدان بل كان هناك سيل فياض من أدب المقاومة –شعراً ونثراً- باللغة الأم العربية الفصحى»[22]، ورغم أن ركيبي كان متحيزاً إلى الأعمال باللغة العربية باعتبارها أصل الثقافة العربية الإسلامية، إلا انه لم ينف عن بقية النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية جزائريتها مركزاً على اتجاهها الثوري المقاوم.

2- المقاومة والنقد: وهاهو عبد الله ركيبي من خلال أعماله النقدية على تعددها وتنوعها « يدعو المثقف إلى الدفاع عن هويته وقيمه اللغوية والوطنية والدينية من خلال إبداعاته الفنية»[23]، التي لا تقتصر على العمل القصصي أو الشعري بل تتعداه إلى العمل النقدي، وهكذا لا يجوز للناقد أبداً أن يقدم خبرته خدمة تباع لسلطة المركز في المجتمع لإضفاء المسحة الشرعية على مسلكها، وفي المقابل هناك المثقف(الناقد) الملتزم صاحب المواقف الذي لا يجري وراء بريق المناصب، ويصب اهتمامه على الوقائع المتعلقة بضروب المقاومة لسيطرة الأجهزة القمعية بجميع أشكالها، كما يكشف أساليب توظيف النصوص والثقافة لتفعيل هيمنة خاصة تقنع التابع بدونيته وعدم قدرته على المقاومة.

هذا التصور وهذا الاتجاه النقدي الذي أسهم في تشكيل وعي ثقافي عام حيث «اكتست الثقافة الجزائرية الحديثة طوال النصف الأول من القرن العشرين سمة المقاومة، وحملت سلاح المواجهة الثقافية، وانخرطت كل النخب المثقفة خلال هذه الفترة انخراطاً كاملا في هذا التيار، وآمنت بدور الكلمة المناضلة في الدفاع عن الهوية الوطنية والوجود القومي وكانت ترى أن النضال والمقاومة ضد المحتل الأجنبي رسالة مقدسة تقتضي من الجميع التجند والالتزام بها »[24]، لذا فالكل مطالب بالدفاع عن هذه الرسالة، أدباء ونقادًا ومثقفين وفكراً جمعياً وحراكاً سياسياً.

وبهذا فإن ركيبي الناقد قد سعى إلى الكشف عن اتجاه الأعمال الأدبية في مرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر، « ومن هذا المنطلق وجدنا أن اهتمامه الأساسي انصب على إبراز العلاقة الجدلية بين نتاجاتنا الفكرية والثقافية، وبين هويتنا ومقوماتنا الوطنية والدينية» [25] للكشف عن اتجاه الحركة الأدبية والثقافية والفكرية ومدى خدمتها لقضايا المجتمع والوطن.

ومن خلال هذا يمكننا القول بأن عبد الله ركيبي قد لخص وظيفة النقد في تناول العمل الإبداعي، وإظهار جماله وتفسيره، وتقديم رؤية مبدعه للعالم، وتفسير رموز وطريقة التعبير التي تجعل من العمل الأدبي وسيلة فعّالة في مقاومة كل صور الهيمنة، وهذه العملية في اعتمادها على مبدأ تحليل وتفكيك العمل الأدبي إلى أدق عناصره الفكرية والفنية، ستكشف في الأخير عن جمال هذا النتاج الأدبي ووظيفته، وبهذا يمكننا القول بأن ركيبي قد وضع اللبنات الأولى لنقد جزائري مقاوم، بل يمكننا القول بأن رائد النقد الثوري المقاوم، إذ أنه مع كشفه لأشكال المقاومة في الأدب الجزائري شعره ونثر، استطاع تتبع تطور هذا الأدب بتطور فكر المقاومة الذي غذى وتغذى من هذا الأدب في عملية تأثير وتأثر متداخلة ومستمرة، كما أنه قد قدم مهام الناقد في إبراز العمل المقاوم ومساندته ومسايرته، وقد جعل وظيفة الناقد هي المقاومة في كل أشكالها، بداية من الإشادة بالأعمال المقاومة إلى الوظيفة الفنية التي يجب أن توجه الأدب والأديب إلى مهمته الأساسية في مواجهة كل الأساليب الفنية والاتجاهات التي تفرض هيمنتها على كل أشكال التعبير.

وفي الأخير يجب الإشارة إلى أنه من العقوق الأدبي أن نتحدث عن الأدب الجزائري، إبداعاً ونقداً، أو ننجز أعمالاً ودراسات وبحوث أكاديمية حول كثير من الأدباء والنقاد ومن كل الأصقاع، دون أن نتناول أعمال المبدع والناقد عبد الله ركيبي، الذي خطا بالأدب الجزائري خطوات مهمة، ووقف عند بعض الأعمال الأدبية ناقداً ومسائلاً كل ما

تحمله من رسائل وشفرات، ليقدم لمكتبتنا عدة مؤلفات تنوعت بين القصة القصيرة والمسرحية والدراسات النقدية التي تستحق كل الاهتمام والقراءة.

الهوامش:

1- نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، دس، ص17.

2- بلمشري مصطفى: الموقف الأدبي، القضية الفلسطينية في الشعر العربي المعاصر، دمشق، سوريا، العدد 126، أكتوبر 1981، ص20.

2- أحمد الحاج أنيسة: المسار النقدي لدى عبد الله ركيبي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2012، ص06.

4- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الجزائر، 2009، ص 167.

5- عبد الله ركيبي: القصة العربية الجزائرية(الاتجاه الواقعي)، جريدة الشعب، ع:24،938/04/12،1965.

6- أحمد الحاج أنيسة: المرجع السابق، ص17.

7- عبد الله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر،(د ت)، ص12.

8- عبد الله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص17.

9- عبد الله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص18.

10- عبد الله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص23.

11- عبد الله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص54.

12- عبد الله ركيبي : الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 95.

13- عبد الله ركيبي : دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص65.

14- عبد الله ركيبي: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، ص 82.

15عبد الله ركيبي: الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الجزائر، 2009،ص5.

16- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، ص153.

17- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، ص168.

18- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، ص 51.52.

19- عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 84 .

20 - عبد الله ركيبي : الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، ص168.

21 - عبد الله ركيبي : الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، ص 168

22 - عبد الله ركيبي : الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، ص152.

23- أحمد الحاج أنيسة: المرجع السابق، ص13.

24- محمد زرمان: الإبراهيمي ونضال الكلمة، ثقافة المقاومة، جامعة فيلادلفيا، جرش، الأردن، ج:01، 2005، ص354.

25- أحمد الحاج أنيسة: المرجع السابق، ص13.